يحتوي النقد العربي القديم مواقف تنبني على حس قرائي متفتح، يتجاوز القراءات الجامدة والمتعصبة، ويرتقي إلى مستوى من الوعي كبير وعميق إلى حد بعيد، يمنح النص فرصة إيجاد التأثير أو الأثر ويناقشه ويستقبله دونما ضيق أو تضييق، في مقابل الأطراف الأخرى التي دأبت على سوء تلقي فن القول.

ويعتبر ابن المقفع من بين الأسماء المضيئة، في التراث النقدي العربي؛ التي تفصح عن آفاق انتظار رحبة وواسعة وعميقة في تلقيها للنصوص الفكرية والإبداعية، أغنت ساحة البحث، ووطدت دعائم فن الإنصاف والنقد في تعاملها مع الأدب آنذاك، وقدمت معها آراء ومواقف مهمة وواعدة وثرية، وهو ما سنعمل على البحث فيه من خلال مساءلة فعل القراءة عنده.

مفهوم القراءة والقارئ عند ابن المقفع

د. سعيد أصيل(*) - المغرب

◁◁ القراءة والقراء عند ابن المقفع:

يجدر بنا أن نشير، منذ البداية، إلى أننا لا ندعي وجود نظرية للتلقي في النقد العربي القديم، كما هو متعارف عليها اليوم بمصطلحاتها ومفاهيمها ومناهجها وبنائها النظري ونسقها العلمي، ولكن حسبنا أن نبحث في ثنايا تراثنا عن وجود تصور، أو تصورات معينة، تتناول آراء ومبادئ تهم القارئ وطريقة القراءة أو التلقي الذي يمارسه هذا القارئ أو ذاك المتلقي كما ينظر إليه مفكرون ونقاد خلفوا لنا مواقف مهمة وتصورات عميقة- في كثير من الأحيان- تمس هذا الجانب، مخبوءة بين طيات الكتب، أو مستمدة من آراء بعضهم تصريحا أو تلميحا.

◁◁ ابن المقفع والمتلقي:

سنحاول في البدء الوقوف عند علم بارز من أعلام الفكر العربي الإسلامي، وهو ابن المقفع الذي ترك مؤلفات عديدة وثرية ومشاغبة أحيانا، ولكن حسبنا تتبع بعض ما ورد حول القضية التي نعالجها.

يقدم ابن المقفع في مقدمة «كليلة ودمنة» نظرات مهمة وعميقة حول نوع القارئ الذي يتوجه إليه خلال

كتابه – بل أغلب كتبه – محددا تقسيمه للقراء إلى ثلاثة، يقول متحدثا عن كتاب «كليلة ودمنة»: «وأما هو فجمع حكمة ولهوا، فاختاره الحكماء لحكمته، والسفهاء للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه في صدره ولا يدري ما هو، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بكتاب مرقوم، وكان كالرجل لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا، وعقدا له عقودا استغنى بها عن الكدح فيما يعمله من أمر معيشته، فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب»[1]

هكذا يقسم ابن المقفع القراء أو متلقي الكتاب إلى ثلاثة أصناف:

◁◁ القراء الحكماء:

وهم الذين يصلون خلال قراءاتهم إلى جوهر المقروء والغرض الذي من أجله كتب ودُوِّن، ومن ثم يدركون حكمته، ويعون أهميته وفضله، ولن يتم لهم ذلك إلا بالجهد والمشقة، وإعمال الرأي بعد الرأي، وتمحيص الفكرة بعد الفكرة، وعدم التسليم بكل ما يقرأ ليصل إلى فهم المقروء فهما جيدا حسنا، ومن ثم يرتقي إلى درجة التأويل العلمي الرصين ليحصل له، وفي الأخير، معرفة هدف صاحب الكتاب وجوهر غايته، وإلا لم ينتفع به، وإنما أقصى ما قام هو أنه أتعب نفسه دونما هدف أو نتيجة، يقول ابن المقفع: «وينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له وإلى أية غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها مثالا، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرة يجتني منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب»[2]..

إن القارئ الحكيم، عند ابن المقفع، قارئ متميز يحسن الانطلاق من المقدمات وفهمها ثم الانتقال بعد ذلك إلى الغرض الأساس من القراءة ككل؛ ألا وهو معرفة «الوجوه الذي وضعت له» الكتب والموضوعات وإدراك ما تضمنته، بل إننا نكاد نستشف المنهج القرائي الذي يحاول ابن المقفع وضعه وتبنيه، ومن ثم يطلب من متلقي الكتاب سلوكه. هذا المنهج يتأسس على ثلاث مراحل:

- **المرحلة الأولى:** مرحلة الفهم، وهي الواردة في قوله: «من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه كما لو أن رجلا قدم له جوزٌ صحيحٌ لم ينتفع به إلا أن يكسره.»[3] فمرحلة الفهم تلك تستدعي تجاوز القراءة البصرية الأولى إلى المعنى الظاهر الأول دون الوقوف عند هذا الحد، وإنما متابعة «القراءة» لفهم المعنى الثاني «الباطن».

- **المرحلة الثانية:** التمحيص وإعادة النظر: إذ «يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر من غير ضجر، ويلتمس جواهر معانيه»[4]، وغاية هذه المرحلة هي المعرفة والإدراك، فالقارئ «إن كانت غايته استتمام قراءته إلى الآخرة دون معرفة ما يقرؤه منه لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه»[5]. فلكي ينتفع بما يقرأ لا بد له أن يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره ولكن بشرط حضور العقل والنظر في أثناء عملية القراءة لتتحقق المعرفة.

- **المرحلة الثالثة:** الرحلة الغائية أو مرحلة العمل بالقراءة والعلم، وهي ما يجعله ابن المقفع الهدف الأكبر لعملية التلقي، إذ لا فائدة من قراءة لا تنفع صاحبها، مادامت مرحلة التمحيص وإعادة النظر مرحلة حاسمة في سبيل الانتفاع من تلك المعارف المكتسبة والمعاني المجلوة. إن المعنى المعرفي يقف في حدود العقل الداخلي دون أن يتجاوزه، أي أن الأمر لا يعدو هنا المعرفة من أجل المعرفة، يقول ابن المقفع: «إن

العامل إذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به، ويجعله مثالا لا يحيد عنه»[٦] وهكذا تتوطد العلاقة بين القارئ والمقروء، إذ يترجم الأول الثاني إلى عمل، وينقله إلى درجة «المثال» الذي لا ينفصل عنه ولا يزيغ... من هنا يقول: «إن العلم لا يتم إلا بالعمل، وإن العلم كالشجرة، والعمل به كالثمرة، وإنما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالما»[٧]، فثمرة العلم هي العمل، كما أنه لا جدوى ولا فائدة من الشجرة بدون وجود ثمار ينتفع بها الناس تُثَمِّن عمل تلك الشجرة وتعطيها قيمة ومعنى، فالعالم صورة نموذجية للعلم الذي تعلمه، وترجمان – من خلال عمله به – لهذا العلم، سيتعلمه ويوظفه في سلوكه وعمله ومعاملاته وتصرفاته، وتلك صورة تحيلنا على أهمية العمل بالعلم في التصور الإسلامي المبني على أساس: العلم هو العمل به ولا فائدة من عالم لا يعمل بعلمه.

يؤكد ابن المقفع: «وعلى العالم أن يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه، ولا تكون غايته اقتناؤه العلم لمعاونة غيره، ويكون كالعين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذاك شيء من المنفعة، وكدودة القز التي تحكم صنعه ولا تنتفع به، فينبغي لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه»[٨].

ليست هذه براغماتية معاصرة، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، ولكنها قاعدة علمية وسلوكية أخلاقية معروفة، ولاسيما إذا ربطناها بالسياق الثقافي والحضاري الإسلامي، ثم ما فائدة علم لا ينفع صاحبه بدءا ولا يرفعه؟! ألم يقل الحقُّ عز وجل في سورة المجادلة (الآية ١١) ﴿ ... يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ... ﴾؟! فالعالم هو أول من يعظ نفسه بعلمه، ثم ينتقل لعظة الآخرين وتوعيتهم ونفعهم.

◁◁ القراء المتعلمون:

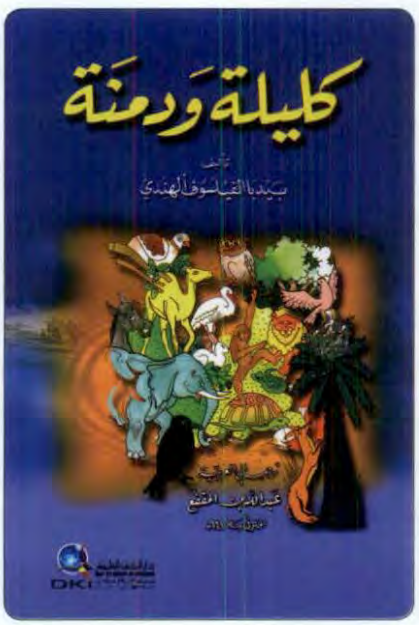

يعد ابن المقفع هذا النوع من القراءة، الخاص بالمتعلمين، سبيل الوصول إلى المرتبة الأولى السابقة، أي إنه لكي يصل القارئ إلى درجة القراء الحكماء لا بد له أن يمر من هذه الطريق؛ ولكن بشروط؛ وينهج النهج القويم في عملية التلقي للعلم، ومن ثم يرتقي حتى يصل إلى درجة السابقين وينضم إلى صنفهم ويندرج في زمرتهم. هذه الشروط هي ما يتضمنه قول ابن المقفع – وهو يتحدث عن كتاب «كليلة ودمنة»: «والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو، بل عرف أنه ظفر من ذلك بكتاب مرقوم.»[٩]

فعملية القراءة هنا، عند هذا الصنف، تمر بثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة الحفظ والأخذ عن ظهر قلب ودونما تدبر، ويمكننا أن ننعتها أيضا بمرحلة «الجمع» وتتطلب نشاطا مستمرا: «ناشط فيما صار إليه»، يجمع ويحفظ.

الثانية: مرحلة الكمون أو الاختمار، وهي التي يعمل فيها المتلقي، الذي يداوم على عملية الحفظ،

على توطين ما يحفظ، وتوثيقه وعقله في ذاكرته مثلما تعقل الدابة خوف انفلاتها وضياعها، وغالبا ما تتم هذه العملية بواسطة عنصر التكرار والاستظهار والإعادة بعد الإعادة التي غالبا ما تتم تحت يد ورعاية شيخ مربٍّ ومعلم.

الثالثة: مرحلة الدراية والوعي والتأويل، وهي التي يصل فيها القارئ إلى إدراك أنه «ظفر من ذلك بكتاب مرقوم»؛ أي عرف ووعى ما كان قد حفظه وتعلمه من خلال الدراسة والفهم، وهذه المرحلة هي التي يشير إليها ابن المقفع بقوله: «إذا احتنك الحدث، واجتمع له أمره، وثاب إليه عقله، وتدبر ما كان حفظ منه، وما وعاه في نفسه، وهو لا يدري ما هو، عرف أنه قد ظفر من ذلك بكنوز عظام.»[١٠]. وفي هذه المرحلة يبدأ يشتد عود المتعلم، ويتجاوز الأخذ والحفظ والقراءة إلى التدبر والإدراك والوعي والتمحيص حتى يتجاوز ما يقرأ، ويعيد قراءته من تلقاء نفسه هو، لا بما أعطي له من معلمه، ومن ثم يعيد عملية إنتاج النص وتأويله مرة أخرى. وهي العملية التي تلحقه بقافلة القراء الحكماء فيما بعد.

القراء السفهاء:

يقف هذا النوع من القراء على طرف النقيض من القراء الحكماء أساسا، والمتعلمين أيضاً، إنهم لا يختارون الكتاب ولا يقرؤونه إلا بحثا عن كوامن اللهو فيه، و«للَهْوه» الذي يعكسه ظاهر بعض الكلام المتبطن بالحكمة والعلم والمشير إلى ظاهره، فكل «من قرأ هذا الكتاب ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه، كما لو أن رجلا قدم له جوزٌ صحيحٌ لم ينتفع به إلا أن يكسره»[١١]، وأن لهذا النوع من القراء أن يكسر عن الجوز قشرته لينتفع بما بداخله، ويقتحم عن الكتاب خطه ونقشه. وكثيرا ما ينعت ابن المقفع هذا النوع من القراء بالجهل، خاصة عندما نعلم أنهم لا يستفيدون مما يقرؤون، ولا ينتفعون به ولا يعملون، فـ «صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالما، ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمي جاهلا»، إنه «كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشره على أكل رديئه، وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص

من علته.»[١٢] ؛ وذلك بسبب عدم تمكنه من عنصر الإدراك والتبصر والتمييز، والقدرة على التمحيص وإعمال النظر.

ويبلغ ابن المقفع درجة كبيرة من الاستهزاء بنموذج هؤلاء القراء السفهاء الذين يبحثون عن مواطن الهزل واللهو في الكتاب بسبب جهلهم وغفلتهم.. إنهم «أهل الهزل من الشبان»، يقرؤون كتابا ككتاب «كليلة ودمنة» «فتستمال به قلوبهم له لأنه الغرض الوارد من حيل الحيوانات»[١٣] بالنسبة لهم، لا غير. وهم صنف لا فرق بينهم وبين غيرهم من العميان، وإنما مثلهم كمثل

«رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى، ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا جميعا في قعرها بمنزلة واحدة، غير أن البصير أقل عذرا عند الناس من الضرير؛ إذ كانت له عينان يبصر بهما، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف»[١٤]

ويقدم ابن المقفع فهماً آخر متميزاً لنموذج هؤلاء القراء وأصنافهم، متحدثاً عن مراتبهم ومواقفهم، وهذا ما يمكن أن نستشفه من نص قصير له أورده

تلميذه الجاحظ في كتاب «الحيوان» يقول فيه: «إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيها شيء. وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك، ورضى جميع الناس لا تناله»[١٥].. فصاحبنا يقسم فئة هؤلاء القراء إلى ثلاثة: الحاسد، والعدو، والجاهل، بينما يقف القارئ العارف في الضفة الأخرى المقابلة؛ وهو ما يجب أن يهتم به الكاتب أو صاحب الكلام. وما يلفت الانتباه هنا هو تأكيد ابن المقفع على حقيقة مهمة وأساسية وهي عدم إمكانية إرضاء رغبات كل القراء مهما بُذِل من جهد، ومهما حرص «المتكلم» واحتاط، وهو في ذلك أيضا ينبه إلى ما يمكن أن يواجه به المتلقون الرسالةَ من أحوال ونفسيات وأحكام مسبقة، أحيانا، ومشوشة على عملية التواصل التي يجب أن يسودها الحياد وحسن الإصغاء للمَقول/ الكلام ، سمعيا أو بصريا .

إن فعل القراءة وعملية التلقي إذن غير بريئين، ومن الصعب ولوج نص من قبل متلق بريء خالص الذهن وصافيه إلا فيما ندر – إن لم نقل من المستحيل- ولذلك فعلى صاحب الكلام ألا يلقي اهتماما كبيرا لهؤلاء، ويكون غاية ما يصبو الوصول إلى تحقيقه هو إبلاغ و"إرضاء" «من يعرف حقوق الكلام» من القراء الحكماء الذين سبق الحديث عنهم.

أصناف القراء عند ابن المقفع

بناء على ما عرضناه، من قبل، يصنف ابن المقفع القراء إلى أربعة أصناف:

أ- العارف بحقوق الكلام: وهو الذي يجب على المرسل إرضاؤه وإيلاؤه الاهتمام الكبير، فإذا وصل إلى هذه الغاية فقد تحققت العملية التواصلية معه وأعطى- من خلال رسالته تلك- «كل مقام حقه».

ب- الحاسد: وهو القارئ الذي لن يرضى على المرسِل ولا على الرسالة، لأن الحسد سيمنعه من ذلك، وسيشكل حاجزا وعائقا يحول دون سلامة عملية التلقي ونجاعتها، مادام ينظر إلى صاحبها لا إليها، وإلى المقول عوض القائل.

ج- العدو: وهو أيضا قارئ لا يمكن إرضاؤه بسبب نظرة العداء المتحكمة في نظرته إلى صاحب الكلام والمقال، ومن ثم لن ترضيه الرسالة أبدا مهما بلغت من درجة في حسن الإتقان وجودة السبك وسلامة

التعبير ودقة الأفكار وأهميتها، وهو أيضا يحاكم الرسالة انطلاقا من الاعتبارات الشخصية الخاصة التي تؤطر علاقته العدائية بصاحبها.

د- الجـاهل: وهذا النوع من القراء لا حاجة لمنتج الرسالة به، وعليه عدم الاهتمام به، بل يجب تغييبه أثناء عملية إعداد الرسالة. فلا رابطة يمكن أن تكون بينهما: «فلستَ منه وليس منك».

لقد قدم ابن المقفع تفصيلا مهماً لمستويات القراء في تعاملهم مع القراءة والمقروء، كما تحدث عن رد فعلهم تجاههما؛ وذلك «انطلاقا من نوعين أساسيين من الحالات:

حالاتهم الشعورية (الحاقد، العدو).

حالاتهم الفكرية (العارف – الجاهل).

ويصل إلى نتائج مهمة في عملية التوصيل منها:

- أن الرسالة توجه إلى فئة دون أخرى، ويظهر ذلك في بنائها وصياغتها الفنية.
- أن إرضاء جميع القراء شيء لا ينال، لأن ثمة عوامل كثيرة ومعقدة تتدخل في عملة القراءة: بعضها نفسي، وبعضها الآخر فكري إيديولوجي. وهذه كلها عوائق ومشوشات تعرقل سير الرسالة، وتعيقها عن بلوغ الهدف المنشود.
- أن اختلال عملية التوصيل يقع، في الغالب، على عاتق القارئ لا على عاتق المنتج، ومعنى ذلك أن القراءة هي المسؤولة عن إنتاج المعنى لأنها هي التي تقوم بعملية التأويل.»[١٦].

تلك إذن كانت أبرز الموضوعات والأفكار التي وقف عندها ابن المقفع وهو يحاور القراء، ويتحدث عنهم وعن أصنافهم، ودرجات تعاملهم مع المقروء/ الكتاب، وهي بذلك كله نظرات مهمة ومفيدة ودقيقة، سبق إليها هذا المفكر، وقدَّم بها بعض كتبه، وكأنه بذلك يسطر ميثاقا للقراءة والقراء المنتظَرين حتى يستطيعوا تحقيق تواصل جيد مع هذا المقروء، ويصلوا إلى الأبعاد العميقة المبثوثة في داخله، ومن ثم يصححوا بعض أخطاء القراءة، ويتجاوزوا بعض هناتها.

هكذا يقدم لنا ابن المقفع فهما عميقا ودقيقا لمفهوم القارئ الذي وجد في عصره، في الوقت نفسه الذي يقدم فيه رأيه في القارئ كما يريده ويفترض وجوده، وهي آراء ومواقف تبدو متقدمة عن عصرها، بل ذات أبعاد متطورة ونظرات فاحصة؛ تلامس منهجا خاصا لتلقي النصوص، وترصد رؤية متميزة لم تتح لها فرصة التطوير من قبل من عاصروه أو جاؤوا بعده■

الهوامش:

(*) أستاذ بالجامعة الدولية بالدار البيضاء، وكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة الحسن الأول، سطات- المغرب.

(١) عبد الله بن المقفع" كليلة ودمنة " ـ المكتبة الثقافية- بيروت/ لبنان- (ب.ت)- ص: ٣٠.

(٢) نفسه- ص: ٣٠

(٣) نفسه – ص: ٣١.

(٤) نفسه- ص: ٣٦.

(٥) نفسه- ص: ٣٦.

(٦) نفسه- ص: ٣١.

(٧) نفسه – ص: ٣٢.

(٨) نفسه- ص: ٣٢.

(٩) نفسه – ص: ٣٠.

(١٠) نفسه – ص: ٣-٤.

(١١) نفسه – ص: ٣١.

(١٢) نفسه – ص: ٣٢.

(١٣) نفسه- ص: ٣٧.

(١٤) نفسه- ص: ٣٢.

(١٥) الجاحظ: «الحيوان» تحقيق عبد السلام محمد هارون – دار الجيل ودار الفكر- بيروت: ١٩٨٨ ج:٧ – ص: ٩٢.

(١٦) محمد بلاجي: «مفهوم» القارئ «عند الجاحظ» – ضمن «الأدب والبناء الحضاري» إعداد: حسن الأمراني- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- وجدة- المغرب- سلسلة «بحوث ودراسات-٨-» الطبعة الأولى: ٢٠٠٠- ص: ٧٢.